الوحش

قصة بقلم ناطق خلوصي

تستفيق المدينة على صوت الجوقة يأتيها من وراء المرتفعات الملتفة حولها مثل السوار (عادة يأتي صوت الجوقة كصافرة انذار تدوّي ساعة الخطر) ..

كانت المدينة تتدثر بغطاء ازرق منقط بنجيمات خافتة الضوء . وفي الدروب التي ترتفع وتهبط ، يتمطى هواء خريفي بارد بعض الشيء فيسري في اوصال البيوت النائمة على بركان من القلق .

قبل سنوات أتى صوت الجوقة منذرا بالخطر ساعة اجتاح وحش كاسر الارض الفافية على الضفة الثانية للنهر الممتد على مرمى بصر المدينة . ومنذ ان اجتاح الوحش تلك البقاع توافدت غيوم سوداء كالقار وتراصفت في السماء الزرقاء نسبيا وتكاثفت لتضع ستارا من العتمة بين الشمس والارض..جفت الاوراد التي كانت تطرز باحكام،وجه البساتين في مواسم العطاء ، خمدت زقزقة العصافير البرية ، وجرى النهر صامتا وحزينا (لكنه ظل يجري) .

يحمل الوحش كل قسمات الوحوش الكاسرة .. يحمل انيابا حادة وسامة ، ومخالب صلدة وملتوية كصلبان معقوفة ، وعينين نائمتين من وجه مشحون بالضراوة .

كان اهل الارض (التي اجتيحت) نائمين بارتخاء لذيذ حين تنفست الرغبة في اعماق الوحش في ان يتجاوز حدود مغارته التي عاش فيها (كان قد اجتاحها هي الاخرى من قبل) وزاوج حيوانات من فصائل متضادة وانجب جيلا هجينا من الوحوش الصغيرة .. ضاقت مغارته باسرته التي كانت تتكاثر بشكل لافت للنظر !

ومنذ ان توغلت خطواته في الارض الجديدة مد مخالبه الطويلة لتدب فوق وجه هذه الارض وتحفر فيه اخاديد من الذعر .. يعشق الوحش شيئين : البرتقال والدم .. يتجول في البساتين المزروعة بصفوف من اشجار البرتقال .. يقطف آلاف الثمار الناضجة الشهية.. ياكلها بشراهة ويرمي قشورها في النهر .. وحين يشعر بالظمأ يمد مخالبه الى الاجساد السمراء .. يغرزها في الشرايين ثم يلعق الدم !

يجلس الوحش على ضفة النهر احيانا ويمد رجليه في الماء .. يغسل رجليه .. يلوث الماء بالقذارة .. يخوض في النهر احيانا ويطمح في العبور الى الجانب الاخر .. جانب المدينة ..

حين اجتاح الوحش تلك الارض جاء صوت الجوقة منذرا فحمل رجال المدينة بنادقهم ودثروا وجوههم بالكوفيات .. تركوا المدينة في صمت الليل وعبروا النهر ، وبدأت المطاردة .. حمل بعضهم راسه فوق كفه ووقف امام الوحش وجها لوجه .. غرز الوحش مخالبه في صدورهم .. فتحها واقتلع قلوبهم ، لكن قلوبهم ظلت تنبض .. في يده كانت تنبض .. وضعها في فمه وكانت ما تزال تنبض .. سدت بلعومه .. كاد ان يختنق .. أخرجها من فمه ورماها الى الارض ، وظلت تنبض على الارض ايضا .

ماذا يعني صوت الجوقة القادم في هذا الوقت ؟ هل تحركت خطوات الوحش من جديد لتعبر النهر ؟

فتحت الابواب الموصدة واطلت منها رؤوس متسائلة : ماذا وراء صوت الجوقة القادم من خلف المرتفعات ؟ كان الصوت يقترب ويتردد صداه : « احذروا الوحش .. لقد بدأ يتحرك » . أخرج الرجال بنادقهم ودثروا وجوههم بكوفياتهم وخرجوا .. اوصدت النساء الابواب باحكام ، لكن عيونهن كانت مصلوبة على الابواب ، وتنفذ النظرات الى الخارج لتتفرس في الطرقات بحذر وخوف .. سأل ولد صغير امه (كان ينحشر بين فخذيها مرتعبا) :

ـ ما هذا الصوت يا امي ؟

ـ انه صوت الجوقة !

ـ من اين يأتي هذا الصوت ؟

ـ من وراء المرتفعات ..

ـ ماذا يعني هذا الصوت ؟

ـ انه دعوة الى الحذر .

ـ ارى في عينيك قلقا يا امي !!

ـ لا تخف يا ولدي .. يبدو ان الوحش الذي اجتاح الجانب المقابل قد تحرك من جديد !

ـ ايريد ان يفترسنا ؟

ـ لن يقدر يا ولدي .. خرج الرجال للوقوف بوجهه .

(لو وصل الوحش اليك ايها الصغير لافترسك .. انه يتلذذ بافتراس الصغار .. لحمهم طري وعظامهم لينة !! لقد افترس الكثير منهم وما زال يطمع في المزيد) .

ركض الرجال الى ضفة النهر .. لم يكن هناك ما يوحي بأي

تحرك للوحش .. كان النهر يجري بهدوء ، وثمة بقع دموية قانية تتجمد فوق الماء وتلتمع مثل نيران متوهجة .. نيران فوق الماء !! عبر النهر كانت هامات الشجر الاجرد تنحني قليلا ولكن ليس الى حد الركوع ، وتأتي رائحة الارض مضمخة بالحزن ..

لماذا دوى صوت الجوقة اذن ؟ قال واحد من الرجال : ـ لعل صوت الجوقة اراد ان يمارس معنا لعبة يسعى من خلالها الى أن يبقينا يقظين نفتح عيوننا ونمد نظراتنا المترقبة نحو النهر لنرصد تحركات الوحش خشية ان يباغتنا كما باغت الجانب المقابل قبل سنوات .

نفض الرجال النعاس عن عيونهم ، ورابطوا عند النهر ، وكانت اكفهم مشدودة على زناد بنادقهم المتحفزة .. وحين تناثر رذاذ الفجر على وجوههم عادوا الى المدينة .. كان صوت الجوقة ما يزال يتردد عبر صباح شاحب ، منذرا بالخطر !! بدأت حبات من المطر الناعم تتساقط على اجسادهم فتبلل كوفياتهم وثيابهم .. على طرقات المدينة كانت هناك آثار دماء ندية .. تفرسوا فيها جيدا .. انها آثار اقدام وحش كاسر .. حارت في رؤوسهم الاسئلة .. أيكون الوحش قد كمم عيونهم بستار من الضباب وعبر ؟ أتكون قد اخذتهم سنة من نوم عندما كانوا هناك ؟ أيكون الوحش قد مر من فوق رؤوسهم ولم يروه ؟ لكن عيونهم كانت مفتوحة .. كانوا يقظين تماما طوال المدة التي رابطوا فيها عند النهر !! لم يلمحوا أي ضباب ! من اين جاءت آثار اقدام الوحش المبللة بالدم اذن ؟

على الابواب الموصدة رأوا آثار كف وحشية ذات مخالب ، مبللة بالدم ايضا ! كانت اثار الوحش موجودة في كل مكان ! (لا بد ان يكون الوحش قد توغل في المدينة) . صدمت انوفهم رائحة جثث بشرية متفسخة ! طرقوا الابواب فرد عليهم الصمت .. ستكون المجابهة قاسية وضارية .. انه امتحان عسير .. لا بد ان يحاصر الوحش في زاوية مميتة .. لا بد ان يضيق عليه الخناق .. سيفترس بعضا منهم .. سيفترس كثيرا منهم .. ليكن ذلك .. يجب ان لا تخفت حرارة المقاومة. الى اخر نفس ايها الرجال .. لو اجتاح الوحش هذه المدينة ايضا ادفنوا رؤوسكم في مستنقعات الوحل . انكم تريدون ان تمسحوا تلك الارض ، ان تلاحقوه ، ان تهدموا مغارته فوق رأسه .. من حقكم ان تفعلوا ذلك .. لو تنعكس الامور فسوف ينقطع الخيط الازلي الذي يربطكم بارضكم ، تفقد حياتكم قيمتها ، تفقد الاشياء معانيها وتتوقف خطوات الزمن عن السير الى الامام .

ما زال صوت الجوقة يأتي اليهم محمولا على جناح ريح باردة : « .. لقد تحرك الوحش .. » ابن هو الوحش ؟ انهم يرون آثاره في كل مكان .. يتتبعون هذه الآثار .. لن يتركوا الوحش يعبث في المدينة كما عبث في الجانب المقابل من قبل .

عبر نفر منهم الى الجانب المقابل وعادوا مسرعين .. ما يزال الوحش يحتضن ذلك الجانب.. ما يزال هناك .. اي لغز محيّر هذا !

رأوا رجلا يحمل في وجهه لون الصحراء الرملية الساخنة وفي عينيه بريق الشوق للانتقام .. لا بد انه يبحث عن الوحش لينتقم منه! يا له من رجل رائع !! لا بد ان النخوة قد تحركت في داخله فنفض عن جسده رمال الكسل وجاء على جناح الشهامة ليطارد الوحش .. هكذا يكون التعاطف الاخوي ايها الرجال ! سمع صوت الجوقة فقطع الصحراء حاملا بندقيته الجديدة وجاء ليطارد الوحش معكم ! انه يعيش هناك في تلك الصحراء القاحلة ، يتمطى بين احضان الهدوء الجنائزي ، يحتسي القهوة ويشرب حليب النوق ، يسير حافيا لكنه يرتبط بالمدينة بخيط متين من التعاطف !!

وقف الرجل الصحراوي قريبا منهم واذ رأى وجوههم تتدثر بكوفياتهم وتنتصب ماسورات بنادقهم عبر اكتافهم ، تسمر في مكانه مثل عمود صدىء من الحديد ، وتطاير الشرر من عينيه ..

قال له واحد منهم :

ـ اهلا بك يا اخ .. هذا موقف رائع .. فلم يرد عليه الا بنظرات مشحونة بالغضب ..

قال له آخر :

ـ اننا مثلك نطارد الوحش ايها الرجل !

كشف الرجل الصحراوي القناع عن وجهه الكالح وقال :

ـ انا لا اطارد الوحش .. اطاردكم انتم .. (تطاردنا ايها الرجل ؟ لماذا ؟ أنحن زرعنا الرعب في قلب هذه المدينة ؟ أنحن لوثنا وجه الارض بالعار ؟ .. جئت من هناك حاملا هذه البندقية الحديثة لتسكت غضبتنا ! كنا ننتظر ان تأتي فارسا تحمل رمح رجولتك ، تعبر النهر بقفزة واحدة ، تغرز رمحك في قلب الوحش وتعود مرفوع الرأس).

رفع الرجل الصحراوي بندقيته وصوبها نحوهم وقبل ان يطلق الرصاص عاجلته رصاصة احدهم فسقط على الارض ونعفر وجهه بالطين ..

بدأ الرصاص يتناثر فوق الرؤوس ويقتحم حرمة المنازل الآمنة .. تصاعدت سحب الدخان في سماء المدينة . تساقطت جدران عالية .. خرج طفل في الخامسة (ذهبي الشعر) يحتضن رغيفا من الخبز .. سقط على الارض واصطبغ الرغيف بالدم .. صرخت أم مذعورة وهي تسقط فوق رضيعها ، ثقبت ظهرها رصاصة لئيمة ، هوت قذيفة غادرة على سيارة بيضاء تحمل على واجهتها هلالا مخضبا بالدم.

انسحب نفر من الرجال الذين يدثرون وجوههم بالكوفيات . . انسحبوا الى النهر .. قد ينتهز الوحش ، الجائم في الجانب المقابل، الفرصة ! كان الوحش يقف على الضفة مطلا بوجهه القبيح ضاحكا ببشاعة ..

كان صوت الجوقة يأتي من وراء المرتفعات ، عاليا ، يخترق الاذان : « ايها الرجال .. لقد تحرك الوحش الذي كان نائما في المدينة تحت غطاء من الكلمات الفارغة كالطبول » .. اذن فهذا وحش اخر غير الوحش الذي ينام على صدر الضفة الاخرى من النهر !! اصبحت المدينة بين قبضتي وحشين ـ وحشين اثنين ، يقف كل منهما على جانب .. سيمد كل منهما ذراعه عبر النهر ليلامس ذراع الاخر ، ثم تغوص المدينة في بئر من الاحزان .. بئر عميقة ..

بدأ الموت يدوس باقدامه الثقيلة فوق صدر المدينة .. لكن صدر المدينة لم ينكسر .. لن ينكسر ابدا .. صلب صدر المدينة !

كان الرجال يقاومون الوحش الثاني بضراوة .. غمس احدهم كوفيته بالدم .. شدها الى ماسورة بندقيته ورفعها راية .. انها تحمل لون الدم .. لا بد ان يرتعب الوحش (ترتعب الوحوش عند رؤيتها الرايات المنقوعة بالدم) .

على ضفة النهر وقف صف من الرجال في مواجهة الوحش الجائم في الجانب المقابل . وفي المدينة كانت صفوف اخرى من الرجال تطارد الوحش الاخر .. كانت الكوفية المغموسة بالدم ، المشدودة الى ماسورة بندقية ، المرفوعة راية ، ما تزال ترفرف ... وما زالت البقع الدموية تلتمع فوق الماء مثل نيران متوهجة ..

كربلاء ـ العراق

ناطق خلوصي